قصـــــيدة غرام ...

للقصصي الفرنسي جي دي مو باسان

بقلم الأستاذ عبد الغني العطري

غادر القطار مدينة جنوا متجهاً نحو مرسيليا ، ومتقفياً تموجات الشاطئ الصخرى الطويلة ، وأخذ يسلك سبيله - بخفة وسرعة ونشاط ، كثعبان أسود مخيف - بين اليم والجبل ، زاحفاً فوق الشواطئ ذات الرمال الصفر التي تدغدغها الأمواج الصغيرة بخيوط دقيقة لجينية ، ثم يدخل - دون تمهل - فوهة النفق الأسود ، كما تدخل البهائم في أجحارها ، أو الطيور الشّردة في أوكارها

وكان في العربة الأخيرة من القطار ، شاب في ريعان صباه ، وامرأة أوتيت من السمن حظاً وفيراً . جلسا متقابلين وجهاً لوجه ، دون أن ينطقا بحرف ، أو ينبسا ببنت شفة . وكان كلاهما يختلس من صاحبه النظر ، بين الفينة والفينة . أما المرأة فكان لها من العمر نحو خمس وعشرين ربيعاً ، وكانت جالسة قرب النافذة تمتع ناظريها بمناظر الطبيعة المُرَنِّية[1] وهي إلى ذلك امرأة قروية صلبة العود ، قوية البنية ، من مقاطعة بيمون الإيطالية ، ذات عينين سوداوين ، وصدر ناهد جسيم ، ووجنتين مكتنزتين باللحم والشحم ، وقد ألقت تحت مقعدها الخشبي عدة حُزم ورزم، واحتفظت فيما بين ركبتيها بسلة

أما هو ... فقد كان في نحو العشرين من عمره ، وكان نحيلاً مهزولاً مسفَّعاً[2] بصبغة سمراء قاتمة ، وهي من علامات الرجال الذين يعملون في الأرض ، خلال فصل الصيف ، وفي حر الهاجرة وكان إلى جانبه منديل حوى كل ما ملكت يمينه من « ثروة ! » ونشب : حذاء وقميص ، وسروال وصدار . وقد أخفى عدا ذلك تحت المقعد أشياء أخرى : مجرفة ومعولاً ، رُبط بعضهما إلى بعض بحبل . لقد كان ذاهباً إلى فرنسة ليبحث فيها عن عمل يمتاش من ورائه

أخذت الشمس تتسلق القبة الزرقاء ، بخطوات متئدة رزينة ، وأخذت تقذف من برجها العاجى البعيد وابلاً من أشعتها النارية المستعرة على الشاطئ الهادئ الوديع .

(١) كلمة جديدة رقيقة ، بمعنى معجب شديد الاعجاب ، وضعها الأستاذ الأديب الشيخ عبد القادر المغربي ، وهي تقابل كلمة Pittoresque الفرنسية ؛ وفي اعتقادنا أنها خير ما يعبر به عن هذه الكلمة الأعجمية ، فلعلها تقابل من كتاب مصر بالاستحسان ، كما قوبلت في دمشق من كتابها

(٢) يقال سفعته النار إذا لفحته لفحا يسيراً فغيرت لون بشرته

مولد الدكتور إسماعيل أدهم ونسبه

اقتصر الأديب إبراهيم أدهم أخو الدكتور إسماعيل أدهم على أن يخطئ ما قيل عن نسب أخيه من جهة أمه دون أن يذكر الحقيقة . فرأينا أن ننقل في ذلك ما كتبه الدكتور زكي أبو شادي صديق الفقيد عنه في مجلة (أدبي) :

« ولد إسماعيل أحمد أدهم في ١٧ فبراير سنة ١٩١١ بمدينة الإسكندرية من أب تركي وأم ألمانية . فأما والده فهو أحمد بك أدهم الأميرالاى في الجيش التركي سابقاً ، وجده إسماعيل بك أدهم أستاذ الأدب التركي بجامعة برلين ، وجدُّ أبيه إبراهيم أدهم باشا ناظر المعارف المصرية على عهد ساكن الجنان محمد علي باشا ، وقد شغل أيضاً من المناصب منصب محافظ القاهرة وناظر الأوقاف وناظر الحربية في مصر . وأما والدته فهي السيدة إيلين فانهوف كريمة البروفسور فانهوف الشهير عضو أكاديمية العلوم البروسية »

نوّت بالحمل وناء بي

بهذا العنوان نشرت الرسالة للأستاذ عوض عوض الدحة كلمة يناقش فيها الأستاذ الطنطاوي حول تعبيرين هما : « نوّت بالحمل ، ناء بي الحمل » فالأستاذ الطنطاوي يرجح الأخير ويومئ إلى أنه هو الأصح رغم شيوع عكسه ، بينما الأستاذ عوض يستملح التعبير الأول ويستدل على هذا بما عثر عليه في بطون المعاجم وأسفار الأدب

وليسمح حضرة الناقد بالانتقال معي إلى خير حَكم ، وهو الكتاب المبين فقد ورد فيه حكاية عن قارون في سورة القصص « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة » أي لتُثقل العصبة بثقلها ، ومن الواضح أن هذا التعبير أنسب وأوجه ليتحقق المعنى المقصود .

أبو الفضل السباعي ناصف

كان ذلك فى أواخر شهر أيار ، وأريج الزهر العطرى يعبق فى الجو ، ويدخل الغرفات ، التى ظلت نوافذها مفتحة ، وكان شجر البرتقال والليمون فى إبان إزهاره ، وأريج زهره الناضر يعبق فى الجو ويتطاير مع النسيم برقة وعذوبة وقوة ، فيفغم الأنوف ، ويملأ الخياشيم ، ويمتزج برائحة الورود الفواحة العطرة التى كانت تنبت على طول الطريق بكثرة مفرطة كما ينبت العشب أو الحلاً فى البساتين وأمام الخرائب المتهدمة ، وفى الحقول والمزارع أيضاً

لقد كانت هذه الورود والأزاهير فى المكان الملائم لها على هذا الشاطئ الوديع ، وكانت تملأ جو البلدة بشذاها الفواح ، وأريجها المتضوع ، حتى إنها تجعل النسيم حلواً طيباً كقطعة من حلوى ! وليس ذلك ما تصنعه فحسب بل كانت تجعل من النسيم شيئاً أقذ من الخمر ، ولكنه مسكر كالخمر !

أما القطار ، فكان يسير الهوينى ، كما لو أنه يبغى عامداً أن يطيل مشيته فى هذه الحديقة الحالمة ؛ وكان يقف بين الآونة والأخرى فى المحطات الصغيرة أمام بعض المنازل البيض ، ثم يستأنف مسيره الهادئ الوانى ثانية بعد أن يصفّر طويلاً ، لم يكن أحد يركب القطار من تلك المحطات ، ولم يكن يُرى أحد أيضاً ؛ حتى إن المرء ليحسب أن الخليقة ناعسة بأسرها ، وأن أحداً لا يجد القوة والنشاط لتغيير موضعه فى ذلك الصباح اللاهب من فصل الربيع

وكانت المرأة البدينة تسبل جفنيها بين الآونة والأخرى ثم تفتحهما على حين غرة ، عند ما تشعر بأن السلة التى وضعتها بين قدميها على وشك السقوط ، فتمسكها بحركة سريعة نشيطة ، وتمد رأسها إلى النافذة ، وتمتع ناظريها بمشاهد الكون الرتيبة ، ثم تعود إلى إغماض جفنيها من جديد ، وكانت بعض قطرات من العرق تلتمع فوق جبهتها ، ثم تتنفس بجهد وعناء ، كما لو كانت تعانى ضغطاً شديداً

أما الفتى القروى فقد أحنى رأسه ، واستسلم لنوم عميق لذيذ

وعند ما كان القطار يغادر محطة صغيرة ، استيقظت المرأة على حين غرة ثم أخرجت من سلتها رغيفاً من الخبز وبيضاً مسلوقاً وقارورة من الخمر وأجاصاً جيداً مورّد الخد وشرعت تأكل

واستيقظ الشاب فجأة أيضاً على صوت حركاتها الأخيرات ، وأخذ يرنو إليها ويطيل النظر إلى كل لقمة تطعمها وتذهب بها من بين ركبتيها إلى فمها . ومكث كذلك : مشبك الذراعين ، شحاذ العينين ، بارز العارضتين ، مغلق الشفتين

وكانت المرأة تطعم غداءها برغبة ملحة ونهم شديد ، وتحسو مع كل لقمة جرعة من صهبائها كى يسوغ طعامها ويسهل عليها ابتلاعه . وكانت تمتنع هنيهة عن طعامها بين الفينة والفينة لتستجم أولاً وترسل تنهداً طويلاً ثانياً

لقد أتت على كل ما لديها من طعام وشراب ، فلم تبق شيئاً من الخبز أو البيض أو الأجاص أو الخمر . وما أن انتهت القروية البدينة من غدائها حتى أغمض الفتى جفنيه . ولما شعرت المرأة بالشبع ، وامتلاء المعدة ، نزعت أزرار ثوبها من عراها ، كى تصيب بعض الراحة بعد هذا الشبع المفرط . ونظر إليها الفتى من جديد ، ولكنها لم تضطرب من نظراته ولم تقلق ، بل ثابرت على فك أزرارها ، وكان ضغط نهديها المتوثبين الشديد ، يبعد القماش بعضه عن بعض ، ويظهر من الفرجة — التى أخذت تتسع — شيئاً من قميصها القطنى الأبيض ، وقليلاً من بشرتها

ولما وجدت القروية البدينة نفسها أقر عيناً ، وأهدأ بالاً ، وأكثر راحة وسروراً ، رفعت رأسها إلى الفتى ، وقالت له تحدثه بالإيطالية :

— لقد بلغت شدة الحر حداً تعسر معه التنفس وضاق

فأجابها الشاب ، باللغة نفسها ، واللهجة ذاتها :

— إن الطقس حسن ، ملائم للسفر والسياحة كل الملاءمة

والتفتت إليه فسألته :

— أأنت من مدينة بيمون ؟

— بل من آستى

— أما أنا فمن كازال

لقد كانا من بلدتين متجاورتين ، فألف ذلك بين قلبيهما ، وجمع بين روحيهما ، فأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث . تحدثا طويلاً ... وطويلاً جداً ، عن أمور وأشياء مبتذلة ، لا قيمة لها ولا شأن يذكر ؛ أشياء تعيد العامة ذكرها ، وتكررها فى كل ظرف أو مناسبة . وهى فى الحق أقصى ما يصل إليه تفكير هذه

الطبقة الضيق . تحدثا عن البلدة ، وعن أخبارها وطرائفها . لقد كان لديهما معلومات مشتركة غزيرة ، يعرفها كلاهما بالتفاصيل والدقائق . وأخذا يذكران الأشخاص ، ويعددان الأسماء التي يعرفان أصحابها . وكانت أواصر الصداقة والمودة تزداد توثقاً بينهما كلما ذكرا شخصاً جديداً رأياه ، أو صحباه ، أو عرفاه . وكانت الكلمات تنطلق من ثغريهما بقوة وحماس ، وسرعة ونشاط ، مع نهاياتها الموسيقية الرنانة ، ونغماتها الإيطالية الحلوة .

ثم أخذ كلاهما يعرّف صاحبه إلى نفسه :

أما المرأة فقد كانت متزوجة ، ولها من الأولاد ثلاثة تركتهم إلى أختها لترعاهم ، وتقوم على خدمتهم ، لأنها أخذت تشغل منصب مرضع وفير الربح ، لدى سيدة فرنسية في مرسيليا

وأما الفتى الشاب فقد كان يبحث عن شغل ، وقد قيل له : إنه سيجد — دون ريب — عملاً في مرسيليا ، لأنهم يكثرون من البناء والعمار هناك

وما أن بلغا هذا الحد من الحديث حتى اعتصما بالسكوت

وأخذت الحرارة تزداد ، والنهار يَرْمض[1]، وذكاء يشتد سعيرها كلما غذّت الخطا في تسلق القبة الزرقاء ، وكانت أشعة الشمس اللاهبة تسقط على عربات القطار فتزيد في شدة الحر ، وتضاعف أواره المتسعر ، وأخذت غمامة من الغبار الكثيف تتطاير خلف القطار ، وتدخل العربات . وكان أريج زهر البرتقال والورود يزداد تضوعاً وانتشاراً ، فيملأ الحياشيم ، ويفعم الأنوف

واستولت على المسافرين الفتيين من جديد رغبة ملحة في الرقاد ، فاستسلما طائعين لسلطان الكرى القاهر

وعادا بعد حين ، فنفضا عن عيونهما بقايا النوم ، في وقت يوشك أن يكون واحداً . وتضيفت الشمس[2] أخيراً ، وأخذت تدنو من البحر ، وهي تنير صفحة الماء الأزرق ، بأشعتها الأرجوانية اللألاءة ، فيزداد بريقه ، ويشتد تألقه والتماعه . وبدا الهواء الطريّ الرطب ، أخف وطأة ، وأقل ضغطاً .

وأخذت المرضع تلهث ، وكان صدارها مفتوحاً ، وخداها مسترخيين ، وعيناها كامدتين ... ثم قالت بصوت يمّ على الإعياء البالغ ، والأنين الشديد :

— منذ نهار أمس لم أُدن ثديي من طفل ، وها أنا ذي بسبب ذلك مضطربة الفكر ، مشتتة القلب ، موزعة الفؤاد ، كما لو كنت مقدمة على إغماء شديد

ولم يحر الشاب جواباً ، لأنه لم يدر ما يقول ، ولا بماذا يجيب

واستمرت المرضع في حديثها فقالت :

عند ما تملك المرأة لبناً بالقدر الذي أملك ، من الواجب عليها أن ترضع ثلاث مرات في النهار ، فإن لم تفعل أصيبت بضيق عظيم ، وغم شديد . إنني أشعر بعبء ثقيل يزحم فوق صدري ، ويكاد يحبس عني الأنفاس ، ويحطم مني الضلوع . من الشقاء والتعاسة أن تملك المرأة لبناً بهذه الغزارة والكثرة

فأجابها الفتى بنغمة الموافق الآسف :

— حقاً إنه من الشقاء يا سيدتي ... إن هذا الابن يقض مضجعك ويزعجك دون ريب ...

وفي الحق كانت تبدو على محياها أمارات المرض ، ويظهر في عينيها بريق التعب والإعياء . ثم تجهمت في صوت خفيض :

— يكفي أن يضغط المرء ثديي قليلاً كي يتفجر منه اللبن ، كما لو كان ماء ينبجس من نبع ، حقاً إن هذا منظره مروع ، حتى إن المرء لا يكاد يصدقه لمجرد السماع ، وفي « كازال » يتقاطر الناس عليّ كي يروا ثديي

— أحقاً ذلك ؟

— أجل ، إن هذا حق ، لا غبار عليه ، ولا لبس فيه ، وسأريكهما ، غير أن هذا لا يفيدني في شيء ، لأني لن أستطيع أن أفرغ شيئاً من محتوياتهما على هذه الصورة

قالت ذلك وسكتت من جديد

ووصل القطار بعد حين من الوقت ، إلى إحدى المحطات ، فوقف عن المسير . وكان في المحطة — خلف الحاجز القائم بين القطار والجمهور — امرأة هزيلة الجسم ، رثة اللبوس ، تحمل بين ذراعيها طفلاً يبكي

ووقع نظر المرضع على المرأة ؛ فقالت بصوت تمثل فيه العطف والإشفاق والرحمة :

— هذه امرأة يمكنني أن أخفف عنها ما تعاني من ضيق ، كما أن الطفل بإمكانه أن يخفف عني هذه الأثقال التي يتوء بها صدري . إسمع يا صديقي لست غنية — لأني أترك منزلي وذويّ وابني الأصغر ، كي أعمل كمرضع ، بعيدة عن الوطن والأهل — ولكني على استعداد لدفع خمسة فرنكات في سبيل الحصول على

(١) يقال رمض النهار إذا اشتد قيظه . (٢) مالت إلى الغروب .

هـذا الطفل وإرضاعه مدة عشر دقائق ؛ إن هذا دون ريب يعيد الهدوء والسرور إلى نفسينا . يخيل إلىّ أنى سأبعث من جديد حين أفعل ذلك ، وإن الحياة ستسرى فى عروق

قالت ذلك ، ولجأت إلى أحضان الصمت تعتصم به من جديد وأخذت تمسح بيدها اللاهبة – حيناً بعـد حين – جبهتها فيسيل العرق منها ويندى

– ثم قالت بصوت موجع حزين :

– لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك ... لم أعد أستطيع ... يخيل إلىّ أنى أوشك أن أموت

وبحركة لاشعورية أطلقت لأزرار ثوبها العنان فتفتح كله ! وبدا ثديها الأيمن للعيان، فكان ضخماً كبيراً ينتهى بحلمة سمراء ... شديدة السمرة . وقالت المرضع المسكينة شاكية متألمة :

– آه يا إلهى ! ماذا أصنع ؟ ماذا أفعل ؟ لم أعد أستطيع ! ..

وكان القطار قد عاد لاستئناف السير بين الأزاهير الفواحة التى تنشر شذاها العبق الذى يشتد تضوعه فى الأمسيات الدافئة . وفى بعض الأوقات كان يخيّل إلى المرء أن زورق صيد وقف هادئاً فوق صفحة الماء الأزرق الساجى بشراعه الأبيض الساكن ، وكانت صورته تنعكس فى الأمواه ، كما لو أن زورقاً آخر كان فى المكان نفسه ولـكن باتجاه معاكس ، أى رأسه إلى أسفل ! ...

ورفع الفتى القروى رأسه إلى المرضع وقال لها مضطرباً مغمغماً :

– ولـكن يا سيدتى ... يمكننى أن ... أن أريحك مما تعانين ! ...

فنظرت إليه المرضع بطرف مريض كليل ؛ وأجابته بصوت خفيض ذليل :

– أجل ... إن أردت يا سيدى . إنك تسدى إلىّ يداً لا أنساها . لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك ! لم أعد أستطيع ...

وجثا الفتى على ركبتيه أمامها ، وانحنت المرضع نحوه مقدمة إلى فمه ، بحركة من حركات المرضعات المألوفة لديهن ، حلمة ثديها الدكناء . وخلال الحركة التى قامت بها المرضع ، والتى أمسكت بها ثديها بيديها ، كى تدنيه من الرجل الشاب ، ظهر على الحلمة نقطة من اللبن ، فامتصها هذا بسرعة ورغبة ونهم ، وهو يقبض بشفتيه على الثدى الثقيل المنتفخ ، كما لو كان يقبض على ثمر شهى ! . أو فاكهة طيبة لذيذة . وأخذ الرجل يرضع لبن هذا الثدى بشره ورغبة ، ونظام ودقة .

وطوّق الشاب بذراعيه خصر المرأة ، وأخـذ يضغطها كى يدنيها منه أكثر ، وكان يتناول لبنه بجرعات متباطئة متزنة ويميل برقبته يمنة ويسرة ، كما يفعل الأطفال الرُّضع على التمام !

وفجأته المرأة بعد حين بقولها :

– يكفى هذا المقدار من هذا الثدى ، خذ الآخر الآن

وتناول الثدى الآخر بإذعان وطاعة وخضوع . ووضعت المرأة يديها على ظهر الشاب ، وأخذت ترسل أنفاسها ، بهدوء نفس ، وانشراح صدر ، وهى تنشق عبير الورود والأزهار الممتزج بنسمات الهواء الرقيقة التى كانت حركات القطار تقذف بها إلى العربات . وقالت له على حين غرة :

– أعتقد أنه يكفى هذا المقدار الذى ارتضعته

فلم يحر الشاب جواباً ، واستمر يحسو من هذا النبع الذى لا ينضب ، مسبلاً جفنيه ، كى يشعر بلذة أكبر ، وسعادة أعظم ولـكنها أبعدته برفق وهى تقول :

– كفى ... كفى ... أشعر بتحسن شديد . إن صنيعك يا سيدى قد أعاد روحى إلى الجسد ، وبعثنى بعثاً جديداً

وانتصب الفتى واقفاً ، وهو يمسح شفتيه بظاهر كفه . فقالت له المرأة حينذاك ، وهى تُدخل فى ثوبها ، ثدييها الكبيرين اللذين ينفخان صدرها :

– حقاً لقد أسديت إلىّ يا سيدى يداً لن أنساها، إننى أشكر لك هذه المنة ، وأحفظ لك هذا الفضل

فأجابها الشاب بغنّة فيها امتنان وشكر ، وعرفان للجميل :

– ولـكن عفوك يا سيدتى وغفرانك ! ... أنا الذى يجب علىّ أن أشكرك من صميم الفؤاد ، وسويداء القلب . لقد انقضى علىّ يومان ، يا سيدتى ، لم أطعم خلالهما شيئاً ...

(دمشق) عبد الغنى العطرى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾